جهود الأمير الأكبر إيفان الثالث
في التخلص من النير المغولي

إعداد

أحمد محمد أحمد علي

مدرس مساعد بقسم التاريخ- كلية الآداب جامعة أسوان

إشراف

الأستاذ الدكتور	**الأستاذ الدكتور**
زبيده محمد عطا	**صلاح سليم طايع**
أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيط	**أستاذ التاريخ الإسلامي**
كلية الآداب جامعة حلوان	**كلية الآداب جامعة جنوب الوادي**

المستخلص

- **كانت روسيا في بداية عهد إيفان الثالث مقسمة إلى مقاطعات عديدة بعضها تحت حكم أمراء روس مستقلين، والبعض الآخر تحت السيطرة البولندية الليتوانية، وكانت موسكو تسيطر على ذلك القسم الذي أضحى فيما بعد يشكل قلب روسيا الكبرى.**
- **عمد إيفان الثالث إلى توحيد كل الأراضي التي كانت تخضع لروسيا بوضعها تحت السيطرة الموسكوفية, وفي الوقت نفسه قام بإجراءات للحد من سلطة النبلاء والأمراء الروس.**
- **بدأ إيفان الثالث بعد ذلك بشن حربا من أجل استعادة الأراضي الروسية التي كانت تخضع لبولندا وليتوانيا والتي استمرت بشكل متقطع من عام 1492م إلى عام 1503م.**
- **كانت المرحلة الأخيرة من جهود إيفان الثالث هو التحرر من النير المغولي, ومما سهل هذا التحرر تحلل القبيلة الذهبية في القرن الخامس عشر إلى دويلات الخانات الإقطاعية المتفرقة وهي دويلات القرم واستراخان وقازان وسيبريا بالإضافة إلى سراي, والتي اشتد التنافس فيما بينهما.**
- **بعد التحرر من النير المغولي اتخذ إيفان الثالث رسميا لقب ملكي لنفسه وهو لقب القيصر أي الحاكم المستقل, وأصبح يشير إلى نفسه في المراسلات بـ "برحمة الرب, قيصر روسيا كلها", ويمكن اعتبار هذا اللقب هو بداية عهد الاستبداد الروسي, ولقد أضاف إيفان قوة إلى عرش موسكو من خلال مد تحالفاته وعلاقاته الدبلوماسية مع الغرب.**

مـقدمـه

شغلت خانية مغول القبيلة الذهبية ــ دولة مغول القبجاق ــ حيزا هاما في التاريخين الآسيوي والأوربي في العصر الوسيط ، ولقد استقلت عن إمبراطورية المغول العظام في قراقورم عام1260م واتخذت لها طريقا خاصا فرضته ظروفها الداخلية والخارجية.

وأخضعت هذه الخانية الإمارات الروسية المتناثرة والمتنازعة فيما بينها، ولقد ارتكزت سياسة خانات المغول على التسامح في معاملتها مع هذه الإمارات، سواء التسامح الديني في حرية الاعتقاد أو العبادة، أو الحرية السياسية للأمراء الروس في حكم بلادهم طبقا للعادات والتقاليد الروسية في مقابل إعلان الولاء والخضوع للخان المغولي وتقديم الجزية المفروضة سنويا.

وفي بداية القرن الرابع الميلادي قاد أمراء موسكو سباق النفوذ وسط الحكام الروس, وأخذوا على عاتقهم مسئولية تحرير روسيا من الاحتلال المغولي, وطلبوا القيادة العليا على كل الأراضي الروسية والملكية المطلقة أو الحكم الفردي لكل روسيا من أجل تحقيق ذلك الهدف, وبدأ الروس يروا في أمير موسكو أملهم الرئيسي في الحرية وقائدهم للنصر واستعادة الوطن.

ولقد تعرضت خانية القبيلة الذهبية منذ أواسط القرن الرابع عشر الميلادي لاضطرابات سياسية زعزعت كيانها وأثرت سلبا على مسيرتها، فقد شهدت حروبا خارجية وصراعات داخلية حادة على السلطة مما أدى إلى انعتاق الروس من الهيمنة المغولية وانقسام المغول إلى دويلات صغيرة وانتهاء الحكم المغولي لروسيا نهائيا.

جهود الأمير الأكبر إيفان الثالث في التخلص من النير المغولي

تولى إيفان الثالث الإمارة الكبرى بعد وفاة أبيه فاسيلي الثاني عام 1462م, ولقد تركزت في يديه سلطة كبيرة وجيش قوي وأراض واسعة, ولقد كان رجل دولة ودبلوماسيًا كبيرًا, قوي العزيمة ودءوبًا في تنفيذ سياسته, وكان نشيطا مرهوب الجانب، خلق للشدائد ومجرد من المبادئ الخلقية فلا يتورع عن فعل أي شيء، حاد الذهن، ماكرًا حذرًا عنيدًا قاسيًا، يقود جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة وهو مستقر في مكانه في قصره، وكان أكثر انتصاره بالمفاوضة والمماطلة ولم يعمد إلى القوة إلا عند الضرورة القصوى, يعاقب على العصيان أو العجز والقصور عقابًا وحشيًا بأن يعذب أو يضرب بالسياط أو يبتر الأطراف أو يقطع الرؤوس.

وهكذا بمثل هذه الصرامة كان يسيطر على شعبه وحاشيته، وأطلق عليه الروس اسم الرهيب، كما اتخذ هذا الأمير لقب العظيم, لأنه أنجز مهمة توحيد روسيا ووضع حدًا لحكم المغول[1].

كانت روسيا في بداية حكمه مقسمة إلى مقاطعات كثيرة بعضها تحت حكم أمراء روس مستقلين، وبعضها الآخر تحت السيطرة البولندية الليتوانية، وكانت موسكو تسيطر على ذلك القسم الذي أضحى فيما بعد يشكل قلب روسيا الكبرى.

نظر إيفان الثالث إلى نفسه كوريث لكل روسيا وليس كأمير لموسكو، لأن إمارته أصبحت تملك في ذلك الوقت الرموز القومية لهذا البلد، وأكد طموحه بتوحيد كل الأراضي التي كانت تخضع لروسيا في ذروة قوتها، وذلك بوضعها تحت السيطرة الموسكوفية[2], وفي الوقت نفسه أمسك يده عن محاربة المغول وصار يداريهم بتأدية الخراج لهم وإرسال الهدايا لتنظيم أموره[3].

توحيد الأراضي الروسية وتكتلها

أصبح جليا أن توحيد الدولة الروسية على نطاق واسع ضرورة سياسية للتخلص من النير المغولي, وقد أصبحت موسكو الدولة المركزية التي كانت قوات الوحدات السياسية المجاورة تتجمع فيها. لذا فإن مصير نوفجورد والإمارات السياسية المستقلة الأخرى لم يكن سوى الحركة الكبرى التي بدا أنها ضرورية لتحرير الشعب الروسي من سيطرة المغول, وتمكين روسيا من تحقيق الوحدة السياسية[4].

---

(1) باسيليوس خرباوي:تاريخ روسيا منذ نشأتها إلي الوقت الحاضر,مطبعة جريدة مرآة الغرب,نيويورك,1911م,ص103, محمد سهيل طقوش:مغول القبيلة الذهبية والهند,دار النفائس للطباعة والنشر,بيروت,ط1, 1428هـ/2007م،ص127, يبيفانوف وفيدوسوف:تاريخ الاتحاد السوفيتي,ترجمة خيري الضامن ونقولا طويل,دار التقدم,موسكو,ص102-103,

A.S.Rappoport:Russian History,London,1905,p.49, Michael T.Florinsky: Russia A Short History,New York,p.50, Robert Gossip:History of Russia, London,1880,p.53, Shaw,Frances A:History of Russia, Boston,1877,p.15.

(2) محمود سعيد عمران:المغول وأوربا,دار المعرفة الجامعية,1997م,ص190-191.

(3) م.م.الرمزي:تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار,تقديم إبراهيم شمس الدين,دار الكتب العلمية,بيروت,ط1, 1423هـ / 2002م,م1,ص648.

(4) Mavor.James:An Economic History of Russia,London,v.1,p.33.

كانت إمارة نوفجورد تعد أقوى مركز تجاري في الأراضي الروسية، إذ كانت تسيطر على المناطق التي تحيط بها مباشرة، وكذلك على طرق واسعة في شمال روسيا تمتد شرقًا حتى جبال الأورال, وعلى الرغم من أنها كانت تفوق موسكو اقتصاديًا إلا أنها كانت دونها من حيث القوة العسكرية, وقد نظر إيفان الثالث بجشع إلى هذا السوق المزدهر الخاضع للضريبة، وحرضه تجار موسكو على القضاء على منافسيهم في الشمال.

بدا لشعب نوفجورد أنهم قادرون على التخلص من سلطة أمير موسكو, فأعادت احتلال الأراضي التي تنازلوا عنها إلى فاسيلي الثاني في عام ١٤٧٠م, وقاموا بوضع مدينتهم تحت حماية كازيمير الرابع 1447-1492م ملك بولندا وليتوانيا بشرط أن لا يتدخل في دينهم. فأرسل كازيمير الأمير ميخائيل أمير كييف ومعه جيش كبير إلي نوفجورد, وقام بتوقيع معاهدة معها, والتي بواسطتها أصبحت نوفجورد تابعه لكازيمير مقابل أن يدافع الأخير عن نوفجورد ضد موسكو. كما طالبت نوفجورد بسلطتها القديمة على بوسكوف[1].

عندما علم إيفان بهذا الأمر أرسل إليهم يدعوهم إلى الطاعة, فلم يسمعوا له, فعمد إلى إخضاعهم بالقوة, فزحف على نوفجورد وانضم إليه جيش مغولي وأجبر تفير وبسكوف على مساعدته, والتقت الجيوش على ضفاف نهر شيلون في مايو عام 1471م، ولقد غادر الأمير ميخائيل وقواته من المدينة, واستطاع إيفان تحقيق النصر ودخول المدينة, وقتل كثير من الأشراف في جملتهم ابن مارفا –رئيسة أكبر حزب مضاد له- وأرسل كثير من الأسرى إلى موسكو. فخضعت نوفجورد ودخلت في طاعة موسكو, وفرض عليهم غرامة حربية كبيرة, واشترط عليهم إعلان تبعيتهم له وعدم الاعتراف بأمراء ليتوانيا, وأن يكرس مطران نوفجورد في موسكو, ثم غادر إيفان نوفجورد, ولم يفعل كازيمير أي شيء تجاه ذلك[2].

ولكن حدث تمرد كبير في نوفجورد في أكتوبر عام ١٤٧٥م, فأسرع إيفان مع قواته إلى نوفجورد, وقام بالقبض على ابن مارفا الثاني وغيره من الأشراف وأرسلهم مكبلين إلى موسكو. ولما عاد إيفان إلى بلاده قام حزب مارفا – مجلس الفيتشي – على حزبه المناصر له وذبحوا منهم

---

[1]محمد سهيل طقوش:المرجع السابق،ص 128,

Bernard Pares:Ahistory of Russia,Published For The United States Armed Forces Institute (USAFI),p.85.

[2]باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص103-104,

Bernard Pares:op.cit,pp.85-86, Cazalet,Lucy:A short history of Russia, Oxford University Press,1915,pp.29-30.

عدد كبير وقدموا التماس جديد إلى كازيمير الرابع, فغضب إيفان وأشار عليه المطران والأساقفة أن يعلن على نوفجورد حربا دينية, وانضم إلى جيشه كثير من أشراف نوفجورد الذين حضروا إلى موسكو لتقديم خضوعهم له.

تقدم إيفان نحو نوفجورد عام 1476م وأمر رجال بسكوف الانضمام لجيشه بمدافعهم, وعلى بعد عشرين ميلا من المدينة قابله مطران نوفجورد وبعض المبعوثين الآخرين والذين خاطبوه بلقب الأمير صاحب السيادة, وتوسلوا إليه وطلبوا الرحمة بأهالي المدينة, ولكن إيفان لم يعطيهم جوابًا وحرك قواته إلى المدينة وبنى سورا حولها.

لم يستطع حزب مارفا الثبات أمام الجنود الموسكوفية فسلموا أسلحتهم وخضعوا لإيفان الذي كفل لهم سلامتهم وعافاهم من الخدمة, وأرسل مارفا وزعماء الثورة إلى موسكو وصودرت أملاكهم, كما حكم على بعض أشراف نوفجورد بالإعدام وأجلوا نحو ثمانية آلاف من شعبها إلى سوزدال.

وفي عام 1477م شكى أهالي نوفجورد من البويار الجائرين الذين نهبوا أملاك الكثير من الناس وضربوهم حتى الموت, وعندما اقتنع الأمير إيفان بأن الشعب لا يؤيد البويار, وأنه ليس بين البويار أنفسهم اتفاق ألغى مجلسهم النيابي وألقى القبض على كثير منهم.

وفي عام 1478م استسلمت نوفجورد وتنازلت عن استقلالها وأعلن إيفان عن ضم نوفجورد لإمارة موسكو نهائيًا. وقام بتهجير مئات الأسر من البويار والتجار الذين عارضوه إلى منطقة وسط الفولجا, وتم نقل عائلات موسكو بشكل جماعي أيضا إلى نوفجورد, ووزع الأمير الأراضي المصادرة من بويار نوفجورد على أمراء موسكو, وخلع ناقوس الفيتشة – رمز استقلال نوفجورد– وأرسله إلى موسكو. وورث تجار موسكو أسواق نوفجورد كما ورث الأمير الكبير دخلها، وكان هذا كسبًا كبيرًا للإمارة[1].

وفي عام 1495م قام إيفان بالقبض على كل التجار الألمان في نوفجورد, وصادر بضائعهم ومخازنهم وكنائسهم, ومنذ ذلك الوقت وصلت التجارة الهانزية إلى نهايتها, ولم تتعافى التجارة في نوفجورد بعد ذلك أبدًا[2].

---

(1) باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص103–107,يبيفانوف, فيدوسوف:المرجع السابق, ص102–103, A.S.Rappoport:op.cit,p.51,Bernard Pares:op.cit,pp.86–87,Cazalet,Lucy: op.cit,p.30, Prince D.S Mirsky:A History of Russia,London,p.18,

(2) Bernard Pares:op.cit,p.92.

وأثناء إخضاعه لنوفجورد أعلن إيفان عام ١٤٧٢م نفسه سيد منطقة بيرم الواسعة بالقرب من جبال الأورال, كما استولى عام ١٤٨٥م على فياتكا من مغول قازان وضمها إلى أملاكه[1], وما إن ضم إيفان الثالث إمارة نوفجورد حتى بسط حكمه على المنطقة المتجمدة والأورال, واكتشفوا أرضًا جديدة, لم تكن معروفة جيوغرافيا وضموها إلى إمارة موسكو. وخضعت بسكوف حفاظا على مصالحها تحت سيادة الأمير الأكبر فأبقى على استقلالها ومجلسها. وقدم أمير ريازان إلى موسكو فزوجه من أخته فاسيليفتا وأعاده إلى إمارته عام 1464م. وتلمست تفير أسباب الحماية عن طريق التحالف مع ليتوانيا ولكن إيفان الثالث سار إلى المدينة بنفسه في عام 1485م, واستولى عليها وأخضع أميرها ميخائيل، وتبعتها روستوف ياروسلاف.

ولما مات أخوه يوري رفض أن تؤول مخصصاته إلى ورثته, وضمها إلى ممتلكاته, فتذمر إخوته أندريه وبوريس لعدم أشراكهما في الميراث فاتهم أخاه أندريه بالتحالف مع ليتوانيا وزجه في السجن حيث قضى نحبه عام 1493م, فضم أملاكه إليه, وكذلك ضم أملاك أخيه بوريس الذي مات بعد أخيه بزمن قصير. وبذلك عاد لإيفان كل ملك أبيه فلقبوه بموحد الأقاليم الروسية[2].

بعد توحيد الإمارات الروسية بدأ إيفان الثالث إجراءات للحد من سلطة النبلاء والأمراء، فقد سمح اتساع سيطرة موسكو على الإمارات المجاورة للأمراء والنبلاء الذين عرفوا باسم البويارات Boyars بالاحتفاظ بضياعهم على شرط أن يقوموا بالخدمة العسكرية والإدارية ويزودوا موسكو بالجند، إلا أن معظم الأمراء الذين تم إخضاعهم لم تطاوعهم أنفسهم على الاعتراف بسيادة أمراء موسكو، وكذلك التنازل عن حقهم السياسي الذي اكتسبوه في السنوات السابقة – أي الحق في إسداء المشورة لأمرائهم من خلال اشتراكهم في المجلس الخاص "مجلس دوما النبلاء Boyars Duma" الذي يقدم المشورة للأمراء – وحينما خضعوا لموسكو أدمجوا في المجلس الخاص لموسكو، وكانوا يأملون أن يتمكنوا من المشاركة في سلطة موسكو, ولكنهم سرعان ما تبينوا أن فرص تحقيق أملهم أصبحت ضعيفة ومن ثم لجئوا إلى المكائد والتآمر, حيث أخذوا يتآمرون فيما بينهم أو مع أعداء موسكو لإضعاف سلطة الأمير الحاكم أو التخلص منها.

ولم يستهين إيفان الثالث بتلك الأعمال الهدامة وأخذ يضعف من سلطتهم بدرجة ملموسة عن طريق مباشر بتقليص حقوقهم ومصادرة ممتلكاتهم في بعض الأحيان, وبطريق غير مباشر

---

(1)

Ibid.p.87.

(2)باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص105-107,محمد سهيل طقوش:المرجع السابق،ص 128, Prince D.S Mirsky:op.cit,p.18.

بخلق طبقة إدارية عسكرية جديدة تعرف باسم نبلاء الخدمة، وبدأ خلفاؤه في تطوير هذه الإجراءات من بعده[1].

ولقد تعززت سلطة الأمير الأكبر بظهور الدولة الروسية الموحدة, فصار إيفان الثالث يسمي نفسه في الوثائق الرسمية "بقيصر عموم روسيا" وأخذ جهاز الإدارة المركزية والمحلية يتكون, وشكل بويار موسكو مجلس دوما البويار, غير أن الأمير الأكبر كان يعالج أهم القضايا مع أقرب مستشاريه.

كان تشكيل الدولة الروسية القومية خطوة جبارة إلى الأمام بالمقارنة مع عهد التجزئة الإقطاعية, فعندما كونت السلطة المركزية جيشها الخاص بدل العصب الإقطاعية لأمراء الأقاليم والبويار الكبار عززت قدرة البلاد على الدفاع عن نفسها, ونالت السلطة المركزية إمكانية السير على سياسة خارجية مستقلة, وأظهرت تصفية النير المغولي عام 1480م بوضوح أنه لم يكن بالإمكان حل هذه المهمة التاريخية إلا بتوحيد القوى؛ وفتح رسوخ الاستقلال الوطني إمكانيات كبرى لتطور البلاد اقتصاديا وثقافيا, وكما كان الأمر في بلدان غربي أوروبا لعبت السلطة المركزية دورا تقدميا في عهد تشكيل الدولة الروسية القومية[2].

ومع تشكيل الدولة المركزية صار واضعو الكتب الروس يسمون موسكو بروما الثالثة[3] ويقولون: لن تكون هناك روما رابعة, وصار مسجلو الحوادث ينسبون سلالات أمراء موسكو إلى أصل إمبراطور روما أوغسطوس, أما رجال الكنيسة فقد أكدوا فكرة الأصل الإلهي لسلطة الأمير الأكبر, وكان على جميع هذه الأساطير والخرافات أن ترفع من هيبة أمراء موسكو في نظر أبناء الشعب وتقوى مكانة الدولة الروسية بين الدول[4].

---

[1]محمود عمران:المرجع السابق,ص195-196.

[2]يبيفانوف, فيدوسوف:المرجع السابق,ص104-107.

[3]نظرية موسكو كـ "روما الثالثة" أطلقها المطران زوسيما Zosima في خطابة فيما يتعلق بعيد الفصح عام 1492م, حيث كتب "الأمير الأكبر إيفان فاسيليتش حاكم كل روسيا, الملك الجديد قسطنطين للمدينة الجديدة القسطنطينية – موسكو".

Daniel H. Shubin:A History of Russian Christianity,Algora Publishing, New York, 2004,V.1,p.174.

[4]يبيفانوف, فيدوسوف:المرجع السابق,ص111- 112.

تحرير الإمارات الروسية الخاضعة لبولندا وليتوانيا

بدأ إيفان الثالث حربًا من أجل استعادة الأراضي الروسية التي كانت تخضع لبولندا وليتوانيا, إذ لم يطق صبرًا هو ومطران موسكو على السلام ما دامت أوكرانيا وكييف وروسيا الغربية تحتفظ بقوة تهدد موسكو وتدعو الأرثوذكس إلى النصرانية اللاتينية، وزعم إيفان الثالث أن ثمة مؤامرة لاغتياله، واتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب مقدسة لتخليص الإمارات الروسية, استمرت بشكل متقطع من عام 1492م إلى عام 1503م.

اتحدت ليتوانيا وبولندا على عداوة روسيا وكن في بداية حكم إيفان تقع هذين البلدين تحت حكم كازيمير الرابع, فأشار إيفان إلى حليفة خان القرم منكلي كراي 1469-1515م بالزحف على بلاد ليتوانيا ونهب كييف ودير الكاتاكوزما عام 1482م.

توفي كازيمير الرابع سنة 1492م وتولى الحكم على بولندا ابنه الأكبر ألبيرن 1492-1501م, وعلى ليتوانيا ابنه الثاني الكسندر 1492-1506م, فعمد إيفان إلى التقرب من السلطان العثماني ومن ملك المجر ومن حاكم مولدافيا الذي كان عدو ليتوانيا وتقرب أكثر من منكلي.

وفي عام ١٤٩٥م عقد معاهدة صلح بين إيفان والكسندر 1492-1506م ودعم هذا الصلح بتزويج الكسندر من ابنة إيفان, إلا أن هذا الزواج كان له نتيجة عكسية بحيث تسبب في حرب جديدة, والتي سببها أنه عندما أعطى إيفان ابنته يمين زوجة لالكسندر اشترط عليه بأن تبقى على ديانتها الأرثوذوكسية وأن يخصص لها مصلى داخل القصر يخدم فيه كاهن أرثوذكسي وأوصى إيفان ابنته بأن لا تدخل الكنيسة الكاثولكية مطلقًا, وقد فعل ذلك من وجه سياسي إذ يعلو شأن الأرثوذكسية في ليتوانيا فيكون النتيجة ميل الشعب إليها, ولم يمضي وقت طويل على ذلك الزواج حتى وعى إيفان بأن ابنته أجبرت على فعل أمور كثيرة ضد إرادتها, وأنها أكرهت على المذهب الكاثوليكي وبأن الأرثوذكسية مضطهدة في بلاد صهره, وتمكن الروس من احتلال كل الأراضي الواقعة بين دسنا وسوجا مع برياتسك وبوتفل ودربونج وتشتت جيش الكسندر بموقعة فدروتشا عام 1500م, ووقع قسطنطين كبير قواده أسيرا بأيدي الروسيين.

بادر لنجدة الليتوانيين أمير بلتنبرغ Plettenberg وفي معركة سير ليستناس عام 1501م هزم إيفان وقتل 40,000 جندي روسي, ولكن عاد الروسيون في السنة التالية عام 1502م وانتقموا لأنفسهم قرب بسكوف, وفي هذا الوقت انتخب الكسندر ملكا على بولندا 1501-

1506م وأبرمت هدنة بين الفريقين عام 1503م مدتها ست سنوات وجعلت سوجا الحد الفاصل بين أملاكهما وبقيت المدن التي احتلتها روسيا في حوزتها[1].

سقوط القسطنطينية ونتائجه

كان سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين عام 1453م علامة على نهاية الإمبراطورية البيزنطية, فانتهز إيفان الثالث تلك الفرصة وبادر بالزواج من الأميرة صوفيا ابنة شقيق آخر أباطرة بيزنطة عام 1472م[2] وأعلن حقه في كثير من صفات ورموز الإمبراطورية وفى الحال أطلق على نفسه لقب Tsar- Autocrat أي القيصر السيد المختار من الرب وملك كل روسيا. كما اتخذ لنفسه شعار الصقر ذي الرأسين الذي كان يستخدم في أختام بيزنطة، وبعد هذا أصبح أمراء موسكو الكبار يعترف بهم قياصرة، ولو أن إيفان الرابع هو أول من توج رسميا بهذا اللقب عام 1547م[3].

هاجر مع صوفيا يونانيون كثيرون وكان بينهم سياسيون محنكون ومهندسون ورسامون بارعون ولاهوتيون وعلماء, فأفادوا البلاد كثيرًا بعلومهم وفنونهم واصطحبوا كثيرا من الكتب المفيدة, وهي أول كتب وضعت في المكتبة المعروفة بمكتبة البطريركية, وهاجر معها أيضًا ايطاليون منهم فيورفانتي الذي صار مهندسا حربيا عند إيفان وأركان حربه, وماركوفو الذي صار سفيره في بلاد فارس, وانطونيو الذي بنى قصره الملوكي ومكتشف المعادن, وبوسيو الصانع الحاذق وغيرهم

---

[1]باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص109-111,محمد سهيل طقوش:المرجع السابق،ص 128- 129, Bernard Pares:op.cit,p.92,Prince D.S Mirsky:op.cit,p.18.

[2]الإمبراطور قسطنطين الخامس باليولوجوس وجد ميتا في اليوم الذي تلى هزيمة الأتراك للقسطنطينية عام 1453م, وتبقى من عائلته فقط اثنين من أخواته: ديميترى وتوماس, ديميترى مات في الأسر بعدها بقليل ولم يترك أولاد, أما توماس هرب إلى فينيسيا باحثًا عن ملجأ وطلب من روما الحماية, وظل بها إلى أن مات وترك أربع أولاد ضمهم البابا إلى رعايته, وهم مانويل وأندريه وهيلين وزوى,

= منهم مانويل عاد إلى السلطان التركي وتحول إلى الإسلام وهيلين ماتت في سنواتها الأولى, أما زوى دعم البابا زواجها من إيفان الثالث أملا في توحيد الكنائس اليونانية واللاتينية؛ إلا أن هذا الأمل لم يتحقق (في روسيا تغير اسمها إلى صوفيا لأن الأساقفة الروس اعتبروا اسمها اليوناني متعلق بمنصب البابا), وانتهت الأسرة الإمبراطورية من خلال قتل الرجال, وانتقلت إلى عائلة إيفان الثالث كنتيجة للزواج. أما وجود أندريه أخو صوفيا على قيد الحياة تم تجاهله لأسباب سياسية.

A.S.Rappoport:op.cit,p.52,Daniel H. Shubin:op.cit,pp.173-174.

[3]محمود عمران:المرجع السابق,ص 198,

Cazalet,Lucy:op.cit,p.31,Shaw,Frances A:op.cit,p.16.

كثيرون؛ وخلفت موسكو القسطنطينية, وأصبحت العاصمة الأرثوذكسية الوحيدة في العالم بأسره وصار لها حق حماية الأرثوذكس في الشرق كله[1], على أن هذه الدولة الروسية ظلت أمدًا طويلاً متباعدة عن الغرب, محتفظة بطابعها الشرقي ونظامها الاستبدادي[2].

ولقد ساعدت الأميرة صوفيا في تخليص روسيا من رقبة المغول, وكانت ذات حيلة وخدعة فكتبت إلى زوجة أحمد خان 1466-1481م كتابًا تقول فيه: إني أمرت في رؤياي أن أبني معبدًا في الدائرة المختصة بمأموري الخان في الكريملن فأرجو من مرحمتكم أن ينقل حضرة الخان هذه الدائرة إلى محل آخر ويأذن لي في بناء معبد في محلها, وأرسلته مع هدايا عظيمة, فصار رجاؤها مقبولاً لدى الخان وأرسل منشوراً مشتملاً على الإذن منه بذلك, فأخرجوا مأموري الخان من الكريملن إلى محل آخر وبنوا في دائرتهم كنيسة وسموها بكنيسة اسياس, وكانوا بعد ذلك لا يتركون مأموري الخان يدخلون دار الإمارة, فصار المغول بهذا السبب لا يقفون على أسرار روسيا, وعينوا لاستقبال من يأتي من طرف الخان مأمورين مخصوصين وعينوا لنزولهم وقراءة فرمان الخان محلاً مخصوصاً خارج دار الإمارة, وكانت روسيا تتدرج هكذا في التخلص من سلاسل رقبة المغول[3].

التحرر من النير المغولي

إن إخضاع أمراء الأقاليم جرى في روسيا إلى جانب التحرر من النير المغولي وكان التحرر من النير الذي دام قرونًا نتيجة لنضال الجماهير الشعبية البطولي, ومما سهل هذا التحرر تحلل القبيلة الذهبية في القرن الخامس عشر إلى دويلات الخانات الإقطاعية المتفرقة: دويلات القرم واسترخان وقازان وسيبريا بالإضافة إلى سراي, والتي اشتد التنافس فيما بينهما[4].

رأى إيفان الثالث أن التحرر من النير المغولي لم يعد مستحيلاً خاصة بعد انقسامهم, فأخذ يضرب كلا منها بالأخرى حتى وثق أنه لم تتحد ضده, فلجأ أولاً إلى الامتناع عن دفع الجزية[5],

---

[1]باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص111-112.

[2]سعيد عبد الفتاح عاشور:أوروبا العصور الوسطى,مكتبة المتنبي,ط1, 1430هـ/ 2009م, ج1,ص617.

[3]م.م.الرمزي:المرجع السابق,ص674-648, A.S.Rappoport:op.cit,p.53.

[4]يبيفانوف, فيدوسوف:المرجع السابق,ص104,

Cazalet,Lucy:op.cit,pp.30-31, David Morgan:The Mongols,Cambridge, 1986,p.145, Nicholas V.Riasanovsky:A History of Russia,Oxford University Press,New York,1993,p.102, Parmele,Mary Platt:A short history of Russia,New York,1906,p.69, W.R.Morfill:The History of Russia,New York,1893,p.41.

[5]محمد سهيل طقوش:المرجع السابق،ص129,

فغضب عليه أحمد خان ١٤٦٠-١٤٨١م وأرسل جيشًا إلى موسكو لإخضاعه، ولما اقترب من أعالي نهر الدون تصدى له خان القرم حاجى كراي 1441-1466م وحاربه فقتل من الطرفين الكثير، والراجح أن ذلك كان بتشجيع من إيفان الثالث؛ والجدير بالذكر أن تلك الاشتباكات كانت بداية مرحلة جديدة من الصراع بين خانات سراي والقرم[1].

وبسبب طموح إيفان الثالث أجريت مباحثات ناجحة بين ليتوانيا وسراي عام 1468م بهدف التعاون المشترك على حرب روسيا, وذلك بأن يهاجم المغول موسكو من الجنوب والليتوانيون من الشمال فتقع بين فكي الكماشة.

وتنفيذًا لهذا الاتفاق خرج أحمد خان من سراي على رأس جيش كبير عام 1472م, وعندما علم إيفان الثالث بتقدم المغول نحو عاصمته أرسل قوة عسكرية من كولومنا بقيادة الأمير فيودور بن داويد ليرابط على نهر أوكا ويمنع القوات المغولية من عبوره، ثم أرسل قوتين أخرتين الأولى بقيادة دانيال كولمسكي وأوبولنسكي ستريغا، والثانية بقيادة القائد المغولي الموالي له دانيال بن قاسم، وقد بلغ مجموع هذه القوات مائة وخمسين ألف جندي, وعسكرت هذه القوات على الضفة الأخرى لنهر أوكا في مواجهة القوات المغولية، وعلى الرغم من هذه الاستعدادات الضخمة كان اسم المغول يثير الرعب في قلوب الروس فهربت والدة إيفان الثالث من موسكو إلى روستوف خشية على حياتها.

تقدم الجيش المغولي على محاذاة الشاطئ باتجاه قلعة ألكسين الواقعة على نهر أوكا، وبدأ المغول عملياتهم العسكرية بحرقها وقتلوا وأسروا كثيرا من سكانها، ولم تتحرك القوات الروسية لنجدتهم وهي تشاهد مأساتهم من الشاطئ الآخر.

عمدت القوات الروسية إلى استعراض قواتها وأسلحتها أمام القوات المغولية وبخاصة المدفعية التي أجرى عليها الروس تحسينات مهمة، الأمر الذي أثار الحذر في نفس الخان المغولي وخشي الدخول في معركة سافرة مع هذه القوات, كما بلغ أحمد خان قصد دانيال بن قاسم خان بلدة سراي فآثر الانسحاب تحت جنح الظلام وأسرع بالعودة إلى بلاده حاملاً معه ما خف من الغنائم, وقد قطع المسافة في ستة أيام في حين استغرقت رحلة القدوم ستة أسابيع، ولم تجرؤ القوات الروسية على مطاردته ويبدوا أنهم أيضا خشوا الدخول في معركة معهم.

Cazalet,Lucy:op.cit,p.31,Michael T.Florinsky:op.cit,p.50.

[1]م.م.الرمزي:المرجع السابق,ص644-645.

وفي عام 1466م توفى حاجي كراي خان القرم وخلفه ابنه منكلي كراي 1467-1515م وكان على عداء مع سراي وليتوانيا, وحتى يقوى موقفه عرض على إيفان الثالث التحالف فوافق الأمير الروسي على هذا العرض بعد تردد؛ والمعروف أن لهذين الحاكمين أهدافًا متعارضة فقد كان منكلي كراي يسعى إلى التغلب على منافسيه في سراي، ويتطلع إيفان الثالث إلى التوسع نحو الجنوب الشرقي بالاستيلاء على تشيربنكوف وسيفيريا، وهذا ما دفع أحمد خان إلى التحالف مع كازيمير الرابع أمير بولندا وليتوانيا.

ويبدو أن منكلي كراي لم يستفد من هذا التحالف الذي ظل معطلا طالما أن كل واحد منهما كان منهمكًا في سياسة منفصلة لا تستدعي تعاونهما المشترك، إذ في الوقت الذي كان فيه حاكم موسكو يرنو ببصره إلى تثبيت أقدامه في ولاية نوفجورد التي احتلها مؤخرًا، نرى أن خان القرم يسعى إلى تصفية حساباته مع منافسيه, فقد خرج عليه بعد ثلاثة أشهر من ولايته نور دولت سلطان من بني أعمام أحمد خان وطرده من البلاد فالتجأ إلى الجنويين في كفا, ولكن تعرض نور دولت سلطان لمؤامرة من قبل الأمير كلدي وجلس مكانه، ثم ظهر منكلي كراي من جديد فاصطدم بكلدي وتغلب عليه واستعاد عرشه[1]، ثم أخذ يسعى إلى تصفية حساباته مع تجار جنوه في القرم[2].

في هذه الأثناء أرسل أحمد خان أخاه مرتضى سلطان إلى بلاد القرم لاستطلاع أوضاعها تمهيدا لغزوها, فتظاهر بأنه فارق أخيه وطلب اللجوء إلى الخان, واطلع مرتضى على نوايا الخان

---

[1] سعيد عاشور:المرجع السابق,ص616,محمد سهيل طقوش:المرجع السابق،ص129-131.
Bernard Pares:op.cit,p.88,F. R.Grahame:A History of Russia and Tatary, London,1860,p.384,Michael T.Florinsky:op.cit,p.50.

[2] حيث أصبح جميع ساحل القرم الجنوبي عمليا بيد تجار جنوه ابتداء من عام 1365 فصاعدا, والذين انحازوا إلى ملوك بولندا –الذين كانوا في الواقع أعدائهم في المجال التجاري– وقبلوا الحماية الليتوانية, مما أثار غضب منكلي كراي وسخطه فعمد إلى توجيه ضربه قاضية لهم، وفى عام 1475م سقط آخر معقل من المعاقل الإيطالية على البحر الأسود, وهو ميناء كافا بعد دفاع مستميت, وبسقوط هذا الحصن انتهت سيطرة اللاتين على القرم؛ وفى أثناء سقوط مستوطنات جنوه تصادف تطورات هامة ففي أثناء حصار كافا اشتركت فرق عسكرية عثمانية ومغولية، وبينما تم لمنكلي القضاء على آخر معقل للنفوذ الأجنبي في القرم نرى أنه قد قدم ولائه وخضوعه التام للسلطنة العثمانية, فأخذ في الحصول على الإمداد والمساعدة بدلاً من إنقاص قوته بالخصام مع العثمانيين، حتى أنه قبل عن طيب خاطر أن يقيم ابن السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح في كافا ويعتبرها مركزًا عثمانيًا, برتولد شبولر:العالم الإسلامي في العصر المغولي,ترجمة خالد أسعد عيسى,دار حسان للطباعة والنشر,دمشق,ط1, 1402هـ-1982م, ص148-149.

العدوانية تجاه سراي فأرسل تقريرًا بذلك إلى أخيه، ويبدوا أن منكلي كراي وقف على حقيقة مهمته فقبض عليه وزجه في السجن وزحف بجيشه نحو سراي.

تصدى أحمد خان للجيش الزاحف باتجاه بلاده وانتصر عليه وجرح منكلي كراي في القتال, وفر من أرض المعركة وتحصن في قلعة قرقر – قرق آر – فتعقبه أحمد خان وتوغل في بلاد القرم ثم قرر أحمد خان الانسحاب من القرم بعد أن تصدى له قائد حامية كفا العثماني قاسم باشا, وعلمه بإرسال السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح جيشًا لإخراجه من القرم[1].

اضطر منكلي كراي للتعاون مجددًا مع إيفان الثالث في مواجهة أحمد خان وكان أمير موسكو قد تفرغ بعد أن أحكم سيطرته على نوفجورد لمعالجة شئون روسيا الجنوبية – أوكرانيا – ولكن هذا الوضع دفع ملك بولندا كازيمير الرابع للرد على ذلك بالدخول في حلف مع أحمد خان, الذي رأى في اتفاق مغول القرم والعثمانيين – عقد تحالف بينهما تنازل بموجبه منكلي كراي عن الأراضي التي انتزعها السلطان العثماني من الجنويين, مقابل حمايته ضد أحمد خان – أنه موجه ضده بخاصة وضد المغول بعامة[2].

وفي عام 1478م رأي إيفان أن كل تدابيره واستعداداته لخلع نير المغول قد اكتملت, فصار يتحين الفرص لذلك إلى أن أرسل الخان أحمد إليه فرمانًا لجمع الجزية فعندئذ أظهر إيفان عصيانه وأخذ فرمان الخان وداسه تحت قدميه وقتل كل رجاله إلا واحدًا ليخبر مولاه, فثار الخان وصمم على الانتقام.

كان على الخان المغولي أن يؤمن جبهته الداخلية قبل الزحف إلى موسكو, فاستقطب ابن أخ له يدعى قصيده كان ينازعه على الحكم وعينه وليا للعهد وقائدًا لجيوشه, ونسق مع كازيمير الرابع الذي تربطه به معاهدة تحالف واتفق معه على أن تدخل الجيوش المغولية الأراضي الروسية عبر نهر أوكا، وتدخل القوات الليتوانية من أعالي نهر أوغرا.

عندما علم إيفان الثالث بهذا الاتفاق خشي على نفسه وبخاصة أنه كان يمر بظروف داخلية حرجة من واقع الصراع على السلطة بينه وبين إخوته وأقاربه، فرأى أن أفضل وسيلة لتخفيف الضغط عنه هي تفرقة الحلفاء، فطلب من منكلي كراي أن يغير على ليتوانيا ليشغل كازيمير الرابع ويمنعه من الاشتراك في الحملة، كما أرسل قوة عسكرية لمهاجمة سراي للضغط على

---

[1] م.م.الرمزي:المرجع السابق،ص646.

[2] برتولد شوبلر:المرجع السابق:ص 148,م.م.الرمزي:المرجع السابق,ص646-647,

Bernard Pares:op.cit,p.92.

أحمد خان ومنعه من الزحف نحو موسكو، والمعروف أن الخان المغولي اصطحب معه في هذه الحملة كافة قواته ولم يترك في عاصمته من يدافع عنها، وهذا خطأ عسكري سيؤثر سلبا على نتيجة الصراع.

خرج أحمد خان من عاصمته في يوليو عام 1480م قاصدًا موسكو لتأديب إيفان الثالث على جرأته وتحديه له، وعسكر على ضفاف نهري أوكا وأوغرا بانتظار وصول القوات الليتوانية؛ ومن جهته غادر إيفان الثالث عاصمته على رأس جيش يقدر بمائة وخمسين ألف جندي, للقاء أحمد خان تتنازعه عوامل التردد والإحجام، وعسكر على الضفة المقابلة لنهر أوكا, وواجه العدوان بعضهما لعدة أشهر من دون أن تقع بينهما معركة مكتفين بتراشق السهام، فخشي الأمير الروسي أن يغامر بعرشه وحياته في لحظه حرجة كهذه, وفى المقابل خشي أحمد خان من مدفعية إيفان الثالث المتطورة، كما خشي على عاصمته من هجوم عسكر الروس بالإضافة إلى أن حليفه كازيمير الرابع أحجم عن مساعدته.

عندما تجمدت الأنهار ولم تعد تحمى الجيوش بعضها من بعض أصدر إيفان الثالث أوامره بالانسحاب قي نوفمبر 1480م، كما انسحب أحمد خان أيضا عائدا إلى سراي بدلا من تعقب الجيش الروسي المنسحب, ولكن الأمير الأكبر الذي لم يظهر أي ثبات أثناء الساعات الحرجة استطاع أن يعود إلى موسكو ويدخلها دخول الظافرين في حين قتل أحمد خان أثناء انسحاب جيشه، حيث تعرض لهجوم آباق خان الشيباني مع أمراء النوغاي[1]؛ وتقاسم أبناؤه الميراث واستطاع أحدهم وهو السيد أحمد الثاني 1481-1502م في الحصول على المركز الأعلى[2].

وهكذا أصبح الشعب الروسي بعد أن توحد في دولة واحدة من القوة بحيث أن العدو المغولي لم يرد أن يشتبك معه في قتال. وكان ذلك نصرًا تاريخيًا عظيمًا ضمن الاستقلال للدولة الروسية وهيأ الظروف لمتابعة تطورها[3].

شكل مقتل أحمد خان كارثة حقيقية ضربت خانية القبيلة الذهبية, حيث انتهز إيفان الثالث الفرصة لتعزيز مركزه في روسيا، ففي العقود القليلة الماضية كان أمراء موسكو قد عقدوا معاهدات

---

[1]باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص107-108, محمد سهيل طقوش:المرجع السابق، ص133-135, A.S.Rappoport:op.cit,p.53,Bernard Pares:op.cit,p.88,Cazalet,Lucy: op.cit,p.31, Michael T.Florinsky:op.cit,pp.50-51.

[2]برتولد شوبلر:المرجع السابق:ص 148.

[3]الكسييف وكارتسوف:تاريخ الاتحاد السوفييتي,دار التقدم,موسكو,ص31-32,يبيفانوف, فيدوسوف:المرجع السابق,ص104-105.

مع الأمراء الروس الآخرين, يجبرونهم بها أن يسلموا الجزية التي كانوا يدفعونها للخان لهم بدلا من الخان, وهكذا أجبر إيفان جميع الأمراء الآن على عدم دفع أي شيء للخان، بل أكثر من ذلك حثهم على قطع علاقاتهم كليا بالمغول، وقوبل تفتت القبيلة الذهبية بارتياح شديد في موسكو وشعر الشعب الروسي بالراحة من مضايقات المغول المتكررة، ولكن من الخطأ القول أن هذه الخانية وصلت إلى نهايتها لأنها استمرت في البقاء لعدة سنوات أخرى إلا أنها فقدت قدرتها على فرض إرادتها ونفوذها على جيرانها، وزالت هيبتها من قلوب أعدائها.

انقسمت خانية القبيلة الذهبية بعد وفاة أحمد خان إلى قسمين تضمن القسم الأول الأراضي الشمالية والوسطى الواقعة بين الدون وبايق وحكمه أولاد أحمد خان, واقتطع فرع من الأسرة ممن نزح عن سراي إلى الأراضي الجنوبية وأسس خانية أستراخان الصغيرة واستقل عن الدولة الأم وقد شكل هؤلاء القسم الثاني[1].

وفي عام 1487م زحف إيفان بجيشه على قازان وبعد حصار سبعة أسابيع فتحوا المدينة وأسروا حاكمها, وأضاف إيفان إلى لقبه لقب "أمير بلغاريا" وأقام عليها حاكما من قبله[2].

عمد منكلي جيراى إلى الاتفاق مع إيفان الثالث لسحق القوة الصاعدة السيد أحمد الثاني إلى الأبد ولكن تنفيذ هذه الخطة تأخر لأن مصالح أصحابها كانت متضاربة, فقد كان حاكم موسكو يتوق أولا للحرب ضد ليتوانيا واضطر إلى وعد الخان منكلي على أساس قيام الأخير بالهجوم على جنوب ليتوانيا وبولندا فضلا عن الاستعداد للعمل ضد خان القبائل العظمى, ولكن إذ بإيفان الثالث يعقد معاهدة صلح مع دوق ليتوانيا الكبير الكسندر الذي كان صهره وتولى العرش عام 1492م, وأدى هذا إلى تفاقم الأمور بين موسكو والقرم وذلك لأن القرم كانت قد تورطت في حرب مع ليتوانيا؛ وأخيرا وصل الجميع إلى اتفاق جديد نتيجة لدبلوماسية إيفان الثالث وبسبب التهديد لحكم منكلي من قبل السيد أحمد, وكنتيجة لهذا الاتفاق استطاع دوق موسكو الدخول في علاقات دبلوماسية مع سلطان الأتراك في القسطنطينية لأول مرة في عام 1495 – 1496م وكانت علاقاتهم أولا تتخذ طابعا تجاريا كانت القبائل التتارية تأخذ فيها دور الوسيط.

اضطر سيد أحمد نظرًا لأوضاع بلاده الجغرافية غير المواتية إلى التغاضي عن هزيمة والده وتجاربه المريرة عام 1480م فاستأنف علاقاته الودية مع ليتوانيا وبولندا ولكن هذا سبب غضب السلطان العثماني عليه وذلك لأن القوات البولندية والليتوانية المتحدة دخلت مولدافيا في محاولة

---

[1]برتولد شوبلر:المرجع السابق:ص 148-149,محمد سهيل طقوش:المرجع السابق،ص135-136.

[2]باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص109, Bernard Pares:op.cit,p.92.

للفوز بالوصول المباشر إلى البحر الأسود, وكان هدفهم استرجاع المناطق التي استلمها الأتراك العثمانيون حول كيليا – تشيليا – عام 1484م وآق كرمان وسيتاتيا ألبا – تدعى الآن بيلى غورد – وقد أصدر السلطان العثماني أمرًا إلى سيد أحمد خان أن يتوقف عن أعماله العدائية ضد القرم، ونتيجة لذلك نجد أن عدداً من خيرة فرق جيش سيد أحمد قد هربوا وانضموا إلى منكلي قبل أن تنتهي الحرب[1].

استمرت العداوة التقليدية بين سراي وخانية القرم، ولعل لذلك علاقة بمدى تدخل إيفان الثالث بين الطرفين وتأجيج الخلافات بينهما ليقضى كل منهما على الآخر، وقد حرض منكلي كراي على مهاجمة سراي والقضاء نهائيًا على القبيلة الذهبية، ووقعت المعركة الأخيرة بين السيد أحمد ومنكلي كراي في عام 1502م فقد هاجم منكلى سراي بجيش بلغ تعداده خمسة وعشرين ألف فارس, وقدم له إيفان الثالث عددا من المدافع المتطورة لقصف أسوارها، فاقتحمها وقتل كثيرًا من سكانها وأسر من بقى على قيد الحياة، ثم هدمها وسواها بالأرض قاضيًا بذلك على هذه الخانية الكبرى التي عمرت مائتين وثمانية وستين عاماً، وفر آخر خاناتها السيد أحمد ناجيًا بحياته, فحاول السفر إلى اسطنبول للاحتماء بالسلطان العثماني بايزيد الثاني لكن السلطان رفض استقباله على أراضيه بوصفه عدو منكلى الذي تربطه به علاقة أسرية، فتوجه صوب ليتوانيا, ولما دخل مدينة كييف قبض عليه حليفه الأمير الليتواني الكسندر وسجنه في مدينة تروكي الليتوانية ثم نقل إلى سجن آخر في مدينة كوفنو وعامله الكسندر كعدو.

والواقع أن الكسندر تصرف وفقا لمصلحته فقد خسر بزوال خانية القبيلة الذهبية حليفًا قويًا في مواجهة عدويه منكلي كراي وإيفان الثالث لذلك كان عليه التقرب منهما حتى لا يقع بين فكي الكماشة، فحاول أولاً التقرب من منكلي كراي فأبدى استعداده لتسليمه السيد أحمد مقابل تحسين العلاقات بينهما ويبدوا أنه أراد فك تحالفه مع إيفان الثالث، لكن لم يلتفت خان القرم إلى رغبة الكسندر إذ أن السيد أحمد لم يعد يهمه في شيء بعد زوال حكمه ورأى أن تحالفه مع الأمير الروسي يحقق مصلحة بلاده, وتوفى السيد أحمد في سجنه في عام 1505م فانقرض بوفاته خانات القبيلة الذهبية[2].

---

[1] برتولد شوبلر:المرجع السابق:ص149-150.

[2] محمد سهيل طقوش:المرجع السابق،ص135-137,

Bernard Pares:op.cit,p.92,David Morgan:op.cit,p.145,Michael T.Florinsky:op.cit,p.51.

والمثير للفضول بعد انتهاء حكم القبيلة الذهبية وتخلص روسيا من أسر المغول بالكلية إلا أن موسكو استمرت في دفع الجزية إلى مغول القرم, واستمر إيفان الثالث في جمع أموال تسمى بخراج المغول من الأهالي والتي استخدمها في إرسال الهدايا إلى خانات القرم وإلى بعض أرباب النفوذ في سراي وإلى أمراء نوغاي وإلى خانات قازان يستجلب بها خواطرهم ويستدفع مضراتهم ويستميلهم إلى نفسه[1].

بعد التحرر من النير المغولي اتخذ إيفان الثالث رسميا لقب ملكي لنفسه وهو لقب القيصر أي الحاكم المستقل, وأصبح يشير إلى نفسه في المراسلات بـ "رحمة الرب, قيصر روسيا كلها", ويمكن اعتبار هذا اللقب هو بداية عهد الاستبداد الروسي, ولقد أضاف إيفان قوة إلى عرش موسكو من خلال مد تحالفاته وعلاقاته الدبلوماسية مع الغرب[2].

وفي عام 1497م أصدر إيفان قانونًا جديدًا عرف باسم سوديبنيك, حيث مثل تجسيدا لامبريالية جديدة إلى عرش موسكو استبعد فيه البويارين تدريجيا من اتخاذ أي رأي أو إجراء في الحكم؛ فقد افتتح فلسفة جديدة لممارسة الحكم الملكي[3], ولم يعطي إيفان ميراثًا لبقية أولاده من ملكه إلا على شرط أن يكونوا تحت سلطة أخيهم الأكبر, ولا حق لهم في صك نقود باسمهم ولا بإدارة أحكام مستقلة[4].

توفي إيفان الثالث في عام 1505م, وخلال فترة حكمه الطويلة التي استمرت ثلاثة وأربعين عامًا استطاع إيفان أن يضيف إلى أراضي روسيا مساحة تقدر بتسعة عشر ألف ميل مربع، وأربعة ملايين فردًا إلى سكانها[5].

ظل نسل إيفان الثالث يتعاقب على عرش موسكو مدة ثلاثة أجيال متوالية, وجعل ولي عهده ابنه فاسيلي بعد أن توفى ابنه الأكبر إيفان في حياته[6].

---

(1) م.م.الرمزي:المرجع السابق,ص657, Michael T.Florinsky:op.cit,p.51.

(2) A.S.Rappoport:op.cit,p.49,Daniel H. Shubin:op.cit,p.174.

(3) A.S.Rappoport:op.cit,pp.53-54,Bernard Pares:op.cit,p.92,Prince D.S Mirsky:op.cit,p.18.

(4) باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص107.

(5) Cazalet,Lucy:op.cit,p.31,Robert Gossip:op.cit,p.53,Shaw,Frances A: op.cit,p.18.

(6) باسيليوس خرباوي:المرجع السابق,ص112-113.

بعد موت إيفان الثالث ظلت دويلات قازان واستراخان والقرم موجودة تحافظ على كيانها, وقد تأسس إقليم مغولي جديد في غرب سيبريا, ولكن العلاقات والصلات الجغرافية بين خانات الفولجا والقرم تقطعت, وظلت أراضٍ واسعة من البلاد دون حماية ضد هجوم موسكو من الجنوب؛ وفي عام 1552م سقطت خانية قازان, بينما سقطت استراخان عام 1554م, وكانت هاتان الحادثتان علامتين فارقتين لانتهاء النفوذ الأسيوي في أوروبا الشرقية, وانتهى أمر خانية سيبريا الغربية عام 1584م, ولم تبقى إلا خانية القرم تحت حكم أسرة كيراي التي اعترفت بسيادة السلاطين العثمانيين, وقد ساعدها أنها لم تكن تقع عبر طريق المسكوفيين الذين اعتبر قياصرتها أن وجودها هو مشكلة سياسية خارجية أكثر منها مشكلة داخلية وطنية[1].

قائمة المصادر والمراجع

1- الكسييف وكارتسوف:

تاريخ الاتحاد السوفييتي,دار التقدم,موسكو.

2- باسيليوس خرباوي:

تاريخ روسيا منذ نشأتها إلي الوقت الحاضر,مطبعة جريدة مرآة الغرب,

نيويورك,1911م.

3- برتولد شبولر:

العالم الإسلامي في العصر المغولي,ترجمة خالد أسعد عيسى,دار حسان

للطباعة والنشر,دمشق,ط1, 1402هـ-1982م.

4- سعيد عبد الفتاح عاشور:

أوروبا العصور الوسطى,مكتبة المتنبي,ط1, 1430هـ/ 2009م.

5- محمد سهيل طقوش:

مغول القبيلة الذهبية والهند,دار النفائس للطباعة والنشر,بيروت,ط1,

1428هـ/2007م.

[1]برتولد شوبلر:المرجع السابق:ص150-151, Prince D.S Mirsky:op.cit,p.22.

6- م.م.الرمزي:

تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار,تقديم

إبراهيم شمس الدين,دار الكتب العلمية,بيروت,ط1, 1423هـ / 2002م.

7- محمود سعيد عمران:

المغول وأوربا,دار المعرفة الجامعية,1997م.

8- يبيفانوف وفيدوسوف:

تاريخ الاتحاد السوفيتي,ترجمة خيري الضامن ونقولا طويل,دار التقدم,موسكو.

9- A.S.Rappoport:ش

Russian History,London,1905.

10- Bernard Pares:

Ahistory of Russia,Published For The United States Armed Forces Institute (USAFI).

11- Cazalet,Lucy:

A short history of Russia,Oxford University Press,1915.

12- Daniel H. Shubin:

A History of Russian Christianity,Algora Publishing, New York, 2004.

13- David Morgan:

The Mongols,Cambridge,1986.

14- F. R.Grahame:

A History of Russia and Tatary,London,1860.

15- Mavor.James:

An Economic History of Russia,London.

16- Michael T.Florinsky:

Russia A Short History,New York.

17- Nicholas V.Riasanovsky:

A History of Russia,Oxford University Press,New York,1993.

18- Parmele,Mary Platt:

A short history of Russia,New York,1906.

19- Prince D.S Mirsky:

A History of Russia,London.

20- Robert Gossip:

History of Russia,London,1880.

21- Shaw,Frances A:

History of Russia, Boston,1877.

22- W.R.Morfill:

The History of Russia,New York,1893.